حديث في سفر

للأستاذ محمود السيد

لقد كان التطلع إلى الأحداث الجارية منذ يوم الهدنة التي أعقبت الحربَ الكبرى في البلاد الشرقية المجاورة لنا، ديدني، والسفرُ إليها غايتي، ومعرفةُ بواعث النهضات الرائعة التي نهضها أهلُها، مقصدي. وكنت أحاول البدء بتركية التي أحسن لغتها وألمّ بعض الالمام بأدبها القوي في حيويته الرقيق بجماله، فلم أوفق. على أني قد وفقت في العام الثاني والثلاثين والتسعمائة والألف، لزيارة بلاد الجارة الصديقة إيران، وكنت يومئذ تعباً جداً من لغوب الحياة الراكدة، ساءماً أيامَها المتواليةَ المتكررةَ عندنا في غير ما انبعاث صحيح، ولا انقلاب من العهد القديم إلى عهد الدنيا الحديث؛ نازعاً إلى اغتراب أنسى فيه، إلى حين من الزمن، آلام المتطلعين من أبناء الشعب الصابر النبيل، إلى حياة هنيئة حرة في مجد جديد يرام كالمجد القديم؛ وقد أسمع وأرى ما يذكّر ويفيد

غادرت بغداد شاخصاً إلى طهران مساء اليوم السابع عشر من شهر أيار، مستقلا قطار خانقين. وفي فجر اليوم التالي بلغت هذه البلدةَ الصغيرةَ التي يتكلم قطنيها شتى اللغى، لأنها بلدةُ الحدود ونافذةُ العراق المطلةُ على إيران. وقد ذكرت فيها والأسف يحز في قلبي كائنةَ المغول الأولى، إذ جاءوها في محرم الحرام من العام الثالث والأربعين والستمائة للهجرة، نازلين إليها من همذان ففتحوها ثم قربوا من يعقوبا؛ وكانت بغداد سكرى في غفلة عن الزمن القلّب الحوّل والأقدار الغادرة. ولم يفعل خليفتها ووزيره وصحبهما سوى التهيؤ — التهيؤ فقط — للدفاع بأجناد من الخلائق فقدت المُثُل العليا، فخارت عزائمُها ووهت بعد مرة، إذ أوهنها تخنيثُ الترف، وتبلبلُ العقائد، وانحطاطُ الخُلُق، واضمحلالُ روح الاستقلال، ثم ارتد المغول عنها متحفزين لهجمة ثانية قاضية. وكذلك فعلوا، فقد عادوا مرة أخرى في العام الخامس والخمسين بعد الستمائة للهجرة يقودهم هلاكو . . .

لم أقم في خانقين التي كانت طريق البلاء الأكبر النازل على العراق بعد ازدهار الحضارة العربية الاسلامية فيه، إلا ساعتين. واكتريت لي سيارة رافقني فيها إلى كرمانشاهان تاجر ايراني ذو سجاحةٍ وظَرْفٍ. ثم جاء بعده عَقيبَ السري منها مسافر عراقي من مشايخ العلم، تراءت لي في محياه دلائل الحماسة في الدين، وفي سلوكه دلائل الحماسة في القومية. فهو عربي من أهل النجف، يدرك روح العصر بعض الإدراك، على ميل شديد فيه إلى الماضي، وحنين إلى دولة العرب في أيامهم الذهبية التي خلت من قبل. وكان سميراً من الطراز الأول، ورجلا يصلح، لو أدرك روح العصر كل الادراك، لأن يكون قريباً من الكمال الانساني المجرد من الصفات التي يخلعها على الانسان في المجتمع نضال المتعصبين في الملل واعتراك النحل وتصادمها. وهو — كما كان يقول — من العاملين لآخرتهم كأنه موشكٌ أن يموت غدا، ومن العاملين لدنياهم كأنه يريد أن يعيش أبداً. وقد حداني الحديثُ ذو الشجون إلى أن أسأله: من السعيد في الدنيا أيها الشيخ الفقيه؟

فأجابني وهو يعبث بمسبحته السوداء: ومن ذا الذي تعني؟ أالسعيد من أهل السياسة؟ أالسعيد من أهل الحرب والطعان؟ أالسعيد من التجار؟ أالسعيد من المحترفين خدمة الحكومة بأعمال الدولة؟ أالسعيد من ذوي الحرف والصناعات؟ .. إلخ

فحيّرني تساؤله هذا، وأعجبت بمنطقه، فقلت وقد أدركت بعض قصده: من السعيد من الطبقة التي تنتمي إليها أنت ياشيخي؟

قال: أحسنت. لقد حددت التعريف فأنصفت. . السعيد منا نحن رجال العلم القديم والدين من صح فيه قولُ عمر بن عبد العزيز الوراق لأبي بكر بن حزم: « إن الطالبين الذين أنجحوا والتجار الذين ربحوا هم الذين اشتروا الباقيَ الذي يدوم بالفاني المذموم، فاغتبطوا ببيعهم، وحمدوا عاقبةَ أمرهم . . . فالسعيد الموفق من أكل من عاجله قصداً، وقدم ليوم فقره ذخراً، وخرج من الدنيا محموداً . . . »

قلت: يا شيخي هذه فلسفة صوفية قد تنافي — إذا كنت مقتصراً عليها — ما زعمتَ لي إذ قلت في بعض حديثك إنك من العاملين للآخرة ومن العاملين للدنيا فأهملت الدنيا هنا؟ أليست هي على رأيك: « الأمر الفاني المذموم ».

قال: إذن لا بد من إيضاح. . إن أمرها لفان ومذموم

لأمثالي إذا ما اقتصرنا في الحياة عليه . وهذا التشديد في ذمها صِمَامُ أمننا ، لأننا صرنا إلى حال لا تَسُرُّ المؤمنَ المحضَ ؛ وإذا كان هذا العصرُ عصرَ الاختصاص ، فإننا قد بَعُدْنا — إلا الأقل الأندر منا — عن اختصاصنا وهو العمل بروح الدين ورُحنا نتطلع إلى مطامع الدنيا ، وحطامها ، فَنَسينا النصيحة والدين هي ، وأقبلنا على كل ما فيه زهو وغرور . . .

قلت : هذا صوت صارخ في البرية ، فهل للشيخ أن يتنحى ؟

قال : لا تعجل . فان لكلامي بقية قليلة ، وفي القليل بُلغة

فأصغيت إليه ، فمضى يقول : فأما العمل للدنيا بالنسبة إليّ ، فاني أحرث الأرض وأزرع في بستان ورثته من آبائي أرضاً قاحلة ، وأتعفف عما في أيدي الناس ، ولا أمد عيني إلى مال ؛ وبمنتوج بستاني وعمل يدي أحفظ على كرامتي ، وأشتري ورقي وحبري وكتابي وثوبي وطعام عيالي ، وأرفع رأسي موفور العزة في عشيرتي وأهل بلدي ؛ فهل من تقصير لدي بعد هذا في أمر الدنيا ؟

قلت : كلا . لقد أوفيت يا شيخي .

قال : وأنصحك يا صاحبي — ولعلك في غنى عن النصح — أن تكون ذا دين ، فاني لأشم في رائحة كتبك هذه التي تحمل بين يديك في رحلتك ، التي لا أعرف منها الغاية والمدى ، شيئاً أراه فوق التجدد الذي أنشده — مع من ينشده — لكم معشر الشباب اليوم فقد يسح لكم التجددُ على طريقة معتدلة لا تمس الدينَ ، ولا تَذْهبُ بالقومية مذاهب الفناء والدمار ؛ ولكن غير هذا لا يصح .

قلت : ياشيخي ! الآن كنت تنادي بالاختصاص ، فقد فهمت أنك من حماة الدين الذي لن أمسه بسوء إن شاء الله ، وإن كنت أقرأ كتباً تجادل فيه ، فلكي أستطلع طلع المجادلين وأعرف مقالاتهم.

قال مقاطعاً :

للرد عليهم ولا شك .

فقلت مستمراً في قولي : ولكني أراك في قولتك الأخيرة متطرقاً إلى القومية ، فهل لي أن أفهم رأيك الواحد في النحلتين .

قال : بلى ؛ فأنا قوميٌ بعد كوني مسلماً . وإذا ادعيتُ مع المدعين أن للعرب الفضلَ الأكبرَ في هذه الحضارة العتيدة ، فلن أُخطئ الهدفَ من الصواب . وأنت تعلم أن أجدادنا نشروا ثقافتهم في آسية وأشاعوا علومهم في أوربة صَعَداً من الأندلس وأسسوا في بلادهم المدارس ، وسافروا إلى أقاصي البلاد في سبيل العلم ، بعد أن نقلوا إلى اللغة العربية كثيراً من الكتب العلمية ، ونقحوها وهذبوها أصولاً وفروعاً ، وأضافوا إلى بعضها ، فأصبح زمام الحركة العلمية العالمية في أيديهم دهرا .

وكان سلطانهم ممتداً من ساحل المحيط الاطلانطيكي إلى تخوم الصين ، وكانوا هم أهل الصنائع والفنون

وكانوا أهل الشرائع العادلة ، وأولى نظام في سياسة الملك قويم ، وآداب خالدة رائعة ، وفلسفات

قلت : معلوم

قال : أجل ، فهذا شيء مفصل في كتب التاريخ ؛ فما الذي يمنعني الآن من أن أفخر بهم ، وبماضيهم المجيد الزاهر ، لكي أبعثَ في نفوس بني جلدتي — أبنائهم — الصُبُوَّ إلى السير على آثارهم مع أداء الواجب الحق لما يتطلبه العصر الحديث منها من أعمال مهما كان نوعها ، ترفع لأمتنا رايتها خفاقة بين رايات الأمم الحية القوية المنيعة الجانب ، الرافلة في حال المدنية ، المتمتعة بمتع المجد والاستقلال . وكذلك كان أجدادنا العرب أولئك في أزمانهم السعيدة ، وأيامهم الخالدة الذكر ، في سِفْر الحياة . وإنهم كانوا مع شيوع الفلسفة لديهم مسلمين حق إسلام ، يشعرون برابطة العروبة غالباً ، وإن كانت القومية على الطراز الغربي الجديد غير معروفة لديهم . . . فأكرر لك مرة ثانية : أنا قوميٌ بعد كوني مسلماً ؛ وليس عندي — لنفسي — رأي غير هذا . . .

إلى هذه النقطة من الحديث بلغ الشيخ . فانتهينا الى مرحلة من الطريق ، وجبت فيها علينا الراحة . وكنا في ضاحية قرية كائنة على حرف واد يُشرف عليه جبل سامق ، نبتت في سفوحه الجنات والحدائق الغلب ؛ فأردت أن أكتفي من الرجل بما سمعت فالتفتُّ الى السائق أسأله « الشايَ » له ؛ فقال مبتسماً وهو ينزل من السيارة : لعلك ترى في كلامي اقتضاباً مخلا ، فاني وان كنت شيخاً ، لا أعرفني الا من أقل الطلبة علماً فان ألفيتُ في منطقي وفي رأيي ما لا تراه وافياً ، فسامحني فيه ، فهذا حديث عجلان ...

« نزيل القاهرة » محمود . أ . السيد